الفصل الرابع عشر

الاقتبـــاس

هوأن يُضَمَّنَ المتكلم كلامَهُ كَلِمَةً مِنْ آيَةٍ ،أوآيةً مِنْ آياتِ كِتَاب الله خاصة هذا هوالإجماع.

والاقتباس من القرآن على ثلاثة أقسام :مَقْبُولٌ ، ومُبَاحٌ ، ومَرْدُودٌ . فالأول : ما كان فى الخُطَبِ والمَوَاعِظِ والعُهُودِ ومَدْحِ النبى صلى الله عليه وسلم ونحوذلك.

والثانى : ماكان فى الغَزَلِ والرسائل والقَصَصِ .

والثالث : على ضربين ، أحدهما : ما نَسَبَهُ الله تعالى إلى نَفْسِهِ ونَعُوذُ بالله مِمَّنْ ينقله إلى نفسه ، كما قيل عن أَحَدِ بَنِى مروان أنه وَقَّعَ على شِكَايةٍ فى عماله: (إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم .) الغاشية ٢٦ .

والآخر : تضمين آية كريمة فى مَعْنًى هَزْل ، ونعوذ بالله من ذلك .

والاقتباس على نوعين : نوع لايخرج به المقتبس عن معناه كقول الحريرى:

(فَلَمْ يَكُنْ إلا كَلَمْحِ البَصَرِ أوأَقْرَبُ حتى أنْشَدَنَا فأَغْرَبُ)

فإن الحريرى كَنَى به عن شِدَّةِ القُرْبِ ، وكذلك هوفى الآية الشريفة :(ولله غَيْبُ السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أوهوأقرب إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِير.) النحل ٧٧.

ونوع يخرج به المُقْتَبِسُ عن معناه كقول ابن الرومى .

لَئِنْ أَخْطَأْتُ فى مَدْحِيـــكَ ما أَخْطَأْتَ فِى مَنْعِى

لَقَدْ أَنْزَلْتُ حَاجَا تِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعِ

فإن الشاعر كنى به عن الرجل الذى لا يُرْجَى نَفْعُهُ ، والمُرَادُ به فى الآية الكريمة أرض مكة .

ويجوز أن يُغَيِّرَ لفظُ المقتبَس منه بِزِيَادَةٍ أونُقْصَانٍ ، أوتَقْدِيمٍ أوتَأْخِيرٍ ، أوإِبْدَالِ الظَّاهِرِ مِنَ المُضْمَرِ ، أوغير ذلك .

فالزيادة وإبدال الظاهر من المُضْمَر كقول الشاعر :

كانَ الذِى خِفْتُ أنْ يَكُونَا إنَّا إلى اللهِ راجِعُونَا

فزاد الألف فى (راجعون) على جهة الاشباع ، وأتى بالظاهر مكان المضمر فى قوله (إنا إلى الله) ومراده آية التعزية فى المصيبة وهى قوله تعالى:(إنا لله وإنا إليه راجعون)البقرة ١٥٦.

والنقصان ما تقدم من قول الحريرى والآية الكريمة أنقص الحريرى لفظ (هو).

والتقديم والتأخير كقول الشاعر :

قال لى إن رَقيبى سَيِّئُ الخُلقِ قَدارِهْ
قُلْتُ:دَعْنِى وَجْهُكَ الجَنَّـــةُ حُفَّتْ بالمَكَارِهْ

هذاهوالاقتباس من الحديث ، وتقدم الاجماع على جواز الاقتباس من القرآن ، ومنهم مَنْ عَدَّ المُضَمَّنَ فى الكلام من الحديث اقتباسا .

وزاد الطَّيِّبِى الاقتباس من مسائل الفقه . والشاعر قدم فى لفظ الحديث وآخر. لأن لفظ الحديث (حُفَّتْ الجَنَّةُ بالمَكَارِهْ) ومن هنا يتبين لك قَطْعُ نظرهم فى الاقتباس عن كونه نفس المقتبس منه ، ولولا ذلك للزمهم الكفر فى القرآن والنقص منه ولولا ذلك يأتون به على أنه لفظ القرآن .

ومن أمثلته الشعرية قول الحماسى :

إذا رُمْتُ عَنْهَا سَلْوَةً قَالَ شَافِعٌ مِنَ الحُبِّ مِيعَادُ السَّلْوِالمَقَابِرْ
سَيَبْقَى لها فى مُضْمَرِ الحُبِّ والحَشَى سَرَائِرُتَبْقَى يوم تُبْلَى السَّرَائِرْ

وقول شهاب الدين بن حجر العسقلانى :

خَاضَ العَوَاذِلُ فى حَدِيثِ مَدَامِعِى لَـمَّا جَرَى كالبَحْرِ سُرْعَةَ سَيْرِهِ
فَحَبَسْتُهُ لِأَصُونَ سِرَّ هَوَاكُمُ حَتَّى يَخُوضُوا فى حَدِيثٍ غَيْرِهِ

فى رأى بعض البلاغيين أن الشاعر لايقتبس بل يَعْقِدُ ويُضَمِّنُ ، وأما النَّاثِرُ فهوالذى يقتبس كالمنشئ والخطيب . فمن ذلك قول الحريرى : (فَطُوبَى لِمَنْ سَمِعَ وَوَعَى وَحَقَّقَ ما ادَّعَى ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى ، وعلم أن الفائزَ مَنْ ارْعَوَى، وأنْ لَيْسَ للإنسانِ إلا ما سَعَى ، وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى.)

وقوله :(أنا أنبئكم بتأويله ، وأَميزُ صحيح القول مِنْ عَليلِهِ .)

ومما يدل على أن الاقتباس يكون من الحديث كما يكون من القرآن ، قول الصاحب بن عباد :

أَقُولُ وَقَدْ رَأَيْتُ لَهُ سَحَابًا ... مِنَ الهِجْرَانِ مُقْبِلَةً إِلَيْنَا
وَقَدْ سَحَّتْ غَوَادِيهَا بِهَطْلٍ ... حَوَالَيْنَا الصُّدُودُ ولا عَلَيْنَا

اقتبس الصاحب بن عباد من قوله صلى الله عليه وسلم حين استسقى ونزل مطر عظيم : (اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا ولا عَلَيْنَا).

وقول شهاب الدين أبى جعفر بن مالك الأندلسى الغِرْناطى :

لا تُعَادِ النَّاسَ فى أَوْطَانِهِمْ ... فَلَّمَا يُرْعَى غَرِيبٌ فى الوَطَنْ
وإذا ما شِئْتَ عَيْشًا بَيْنَهُم ... خَالِقِ النَّاسَ بِخُلْقٍ ذى حَسَنْ

اقتبس من قوله صلى الله عليه وسلم لأبى ذر : (اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا . وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلْقٍ حَسَن .)

ومن الاقتباس من مسائل الفقه قول القاضى عبد الوهاب المالكى :

ونَائِمَةٍ قَبَّلْتُهَا فَتَنَبَّهَتْ ... وقَالَتْ :تَعَالَوْا فَاطْلُبُوا اللِّصَّ بالحَدِّ
فَقُلْتُ لَهَا :إِنِّى فَدَيْتُكِ غَاصِبٌ ... وما حَكَمُوا فى غَاصِبٍ بِسِوَى الرَّدِّ

ومن الاقتباس من مسائل النحو قول زين الدين بن الوردى :

وأَغْيَدَ يَسْأَلُنِى ... ما المُبْتَدَا والخَبَرْ؟
مَثَّلْهُمَا لِىَ مُسْرِعًا ... فَقُلْتُ :أَنْتَ القَمَرْ

ومن الاقتباس من علم العروض :

ويَقْلِبِى مِنَ الجَفَاءِ مَدِيدُ ... وبَسِيطٌ وَوَافِرٌ وطَوِيلُ
لم أَكُنْ عَالِمًا بذلك إلى أَنْ ... قَطَّعَ القَلْبَ بالفِرَاقِ الخَلِيلُ

فزاد الألف فى (راجعون) على جهة الاشباع ، وأتى بالظاهر مكان المضمر فى قوله (إنا إلى الله) ومراده آية التعزية فى المصيبة وهى قوله تعالى:(إنا لله وإنا إليه راجعون)البقرة ١٥٦.

والنقصان ما تقدم من قول الحريرى والآية الكريمة أنقص الحريرى لفظ (هو).

والتقديم والتأخير كقول الشاعر :

قال لى إن رقيبى سيئ الخلق فداره

قلت:دعنى وجهك الجنة خف بالمكاره

هذاهوالاقتباس من الحديث ، وتقدم الاجماع على جواز الاقتباس من القرآن ، ومنهم من عد المضمن فى الكلام من الحديث اقتباسا .

وزاد الطيبى الاقتباس من مسائل الفقه . والشاعر قدم فى لفظ الحديث وآخر. لأن لفظ الحديث (حفت الجنة بالمكاره) ومن هنا يتبين لك قطع نظرهم فى الاقتباس عن كونه نفس المقتبس منه ، ولولا ذلك للزمهم الكفر فى القرآن والنقص منه ولولا ذلك يأتون به على أنه لفظ القرآن .

ومثلته الشعرية قول الحماسى :

إذا رمت عنها سلوة قال شافع من الحب ميعاد السلوالمقابر

سيبقى لها فى مضمر الحب والحشى سرائرتبقى يوم تبلى السرائر

وقول شهاب الدين بن حجر العسقلانى :

خاض العواذل فى حديث مدامعى لما جرى كالبحر سرعة سيره

فحبسته لأصون سر هواكم حتى يخوضوا فى حديث غيره

فى رأى بعض البلاغيين أن الشاعر لايقتبس بل يعقد ويضمن ، وأما الناثر فهوالذى يقتبس كالمنشئ ، والخطيب . فمن ذلك قول الحريرى : (فطوبى لمن سمع ووعى وحقق ما ادعى ونهى عن الهوى ، وعلم أن الفائز من ارعوى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى.)

وقوله :(أنا أنبئكم بتأويله ، وأميز صحيح القول من عليله .)